الركون إلى الحياة الدنيا

يخطئ من يركن إلى الحياة الدنيا ويظن أنها تدوم على حال.

إن الأيام تمضي، والآجال تنقضي، والإنسان مع الأيام يتغير من طور إلى طور، ومن حال إلى حال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يذكر أصحابه بهذا التغير والانتقال، حتى لا يَخْلُد الإنسانُ إلى الأرض، أو يركنَ إلى زهرة الحياة الدنيا.

ففي خطبته ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: « **أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين أجلٍ بقيَ لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبدُ لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مُسْتَعْتَبْ، ولا بعد الدنيا دارٌ إلا الجنةُ أو النار** »

وهذا التغير – من حال إلى حال – جديرُ أن يكون موطنَ عبرة ومثار خشية.

وعبرتنا من تغير الأحوال ومداولةِ الأيام أن نعرف سنن الله فينا، وأن ندرك أن هذه

---

(١) غافر : ٦٧.

السنن لا تختلف ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ (١)

ونحن إذ نستقبل يوماً من أيامنا لا نستقبله إلا بفراق آخرَ من آجالنا. ويمكننا أن نصحح أخطاءنا وأن نقوم اعوجاجنا، وأن نتوب عن معاصينا ونحن في سعة، والله يقبل توبة التائب من قريب، ولا يقبلها إذا حضر الموت، وهو حاضرٌ لا محالة ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ (٢)

إذاً تلزم التوبة دائماً من قريب دون تأجيل إلى الغد، لأنك لا تدري ماذا يكون في الغد ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٤)

نحن لا نملك الغد، ولا ندري ماذا نكسبُ فيه. فليأخذ الإنسانُ من يومه لغده، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات.

---

(١) فاطر : من الآية ٤٣.

(٢) لقمان : من الآية ٣٤.

(٣) البقرة : من الآية ١٤٨.

(٤) النساء : ١٧، ١٨.

روى الترمذي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » [1]

إنها لحظة الشدة التي يبرأ فيها الإنسان من معاصيه ويُعْلن توبته. وقد اقتضت سُنَّة الله ألا ينفع إيمان عند نزول البأس والشدة.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [2]

إن فرعون حين أدركه الغرق أعلن إيمانه، وتبرأ من كفره وعصيانه. ولكن هيهات والموت مطبق، والعذاب واقع ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [3]

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) غافر : ٨٤ ، ٨٥.

(٣) يونس : ٩٠-٩٢.

مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١)

✿✿✿

أخي المسلم:

علينا ونحن ندرك سنن الله في خلقه ألا نركنَ إلى ضعف، ولا نغتر بكثرة. أو نفتن بما أنعم الله به علينا. فإن الركون إلى الضعف استسلام لليأس وقعود عن العمل، والله يأمرنا بالعمل وينهانا عن اليأس والقعود ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٢)

يقول ﷺ: « **يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا** »(٣)

ويقول عمرُ بن الخطاب ﷺ: لو أن الأعاجم جاءت بالأعمال وجئنا بلا عمل لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة.

والإعجاب بالكثرة زهوٌ تفتر به العزيمة، ويجلب الإدبار والهزيمة ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

(١) الأنعام : ١٥٨.

(٢) التوبة : ١٠٥.

(٣) رواه البخاري.

مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١)

نزلت السكينةُ على النفوس التي اعتمدت على الله وتوكلت عليه دون سواه وبرئت من حولِها وقوتِها إلى حول الله وقوته.

فرَّ من فَرَّ بإعجابه، وثبت من ثبت بإيمانه ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

علينا ونحن نعرف سنن الله ألا نركن إلى ضعف أو نغتر بكثرة. وعلينا - كذلك - ألا نفتتن بما أنعم الله به علينا.

إن ثَباتَ الخطى في الأحوال كلِّها يرتبط بالغاية التي تسيطر على نفس الإنسان وتحكمه من داخله، فالذين يسيطر على نفوسهم أن تمتلأ أيديهم بالمتاع، يُحزنهم أن يتخلف المقصود أو يُبطئ المرغوب. وتراهم ولا ثبات في سلوكهم، ولا طمأنينة في نفوسهم، بل يحيون في سُعار الطمع والجشع حتى ينقطع بهم الأمل عند لقاء الأجل.

في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - **أن النبي ﷺ قال: « لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ، وَلا يَمْلأُ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ »** (٣)

لا يزال ابن آدم حريصاً على الدنيا حتى يموتَ ويمتلئَ جوفُه من تراب قبره. والآجال تنقضي، والإنسان مع الأيام يتغير من طورٍ إلى طور ومن حال إلى حال.

---

(١) التوبة : ٢٥،٢٦.

(٢) التوبة : من الآية ٢٦

(٣) رواه الترمذي.

فلنتأمل جانب الباقيات الصالحات فيما أنعم الله علينا، ولنحذر فتنة النفوس بنعم الله والاطمئنان بها؛ فلا ركون لذاهب ولا اطمئنان لزائل.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم:

هذا التحديدُ النَّيِّرُ لحقائق الأشياء يبصرنا مقاصدنا، وترتبط عزائمنا.

إن سباقاً مسعوراً يقع بين الناس على اللهو، واللعب، والزينة، والتفاخر، والتكاثر في الأموال والأولاد، وهو سباق خاسر منته إلى حُطام.

إن التسابق يجب أن يكون على ما يبقى ويدوم، وينتهي إليه أمر الإنسان ويرتبط به فوزه وفلاحه ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢)

هنا يدعونا الله أن نتسابق، وفي تسابقنا لرضوان الله تحقيق لأبرِّ النتائج من البر، والخير، والمودة، والرحمة.

---

(١) الحديد : ٢٠، ٢١.

(٢) الحديد: ٢١.

أما التسابق والتنافس على المتاع والزينة، فإنه محقق للضغائن والأحقاد، مفسد للروابط، تقوم به الأنانية والجشع، وتهبط معه القيم والأخلاق. ويُستدرج المجتمع إلى الدمار والهلاك.

في الحديث المتفق عليه عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَوْا صَلاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قَالَ: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: فَأَبْشِرُوا، وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » [١]

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري ﷺ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا » [٢]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

✿✿✿

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.